



من الواضح أن الحرب السورية المتعددة الأبعاد والرهانات دخلت مرحلة جديدة منذ فشل مفاوضات جنيف 3، وأن المكاسب التي يحققها التحالف الروسي الإيراني في الميدان تخلق وضعًا جديداً، وتمهد لتحولات سياسية وجيوسياً، قد تكون لها مضاعفات عميقة على سوريا ومستقبل المنطقة والنظام الدولي بعمومه.

بحصارها مدينة حلب التاريخية، وإغلاقها الحدود السورية التركية، بعد ضغطها المتواصل على موقع المقاتلين السوريين، تضرر روسيا أكثر من عصفور بحجر واحدة. تقضي على قوى الثورة السورية المسلحة التي كانت، منذ البداية، هدف تدخلاتها الدبلوماسية والعسكرية، وتهدد أوروبا التي فرضت العقوبات عليها بالتفكك تحت ضغط طوفان اللاجئين المستعدين لركوب كل المخاطر للوصول إليها، وتدمير آخر ما تبقى للولايات المتحدة والغرب من صدقية لدى حلفائهم الإقليميين، وبالتالي، من نفوذ في الشرق الأوسط والعالم.

ولا شك في أن موسكو حققت جزءاً كبيراً من هذه الأهداف، وأنها قادرة على استكمالها إذا أصرت. لكن نتائج ذلك لن تكون بالتأكيد مطابقة لما تتوقعه روسيا نفسها من استعراض قوتها العسكرية، ولا ما تراهن عليه الكتلة الغربية من إمكانية وضع حد لمسلسل الانهيارات المتواترة التي يقود إليها استمرار الحرب، سواء ما تعلق منها بالإرهاب أو اللاجئين، أو الاستقرار الإقليمي والدولي.

فلن يساعد مثل هذا التطور الميداني والجيوستراتيجي على إيجاد أي حل للمشكلات التي فجرت الحرب في سوريا، وسرّعت من نيرائها، وأمدت بأجلها، ولا في إنقاذ المنطقة المشرقة من جحيم المواجهات الدموية التي تنهدها، ولا بخلص القارة الأوروبية والعالم من الإرهاب المتامٍ على هامش هذه المواجهات، ولا من باب أولى استعادة الأمن والسلام في الشرق الأوسط وترميم النظام الدولي الذي قوّضته الحرب، وإعادة بنائه على أسس أكثر تماسكاً وصلابة. إنما ستفاقم بالعكس من التصدعات والتناقضات والشروع التي تكمن في أساس الانفجارات والصراعات المستمرة منذ سنوات.

في سوريا، تهدد سياسة الأرض المحروقة التي تتبعها الحكومة الروسية، والتي لا تعير أي اهتمام لحياة الإنسان في معاركها الداخلية والخارجية، بكارثة إنسانية محققة، تتجاوز كل ما نجم سابقاً عن تدمير النظام السوري مدنًا وبلدات سورية عديدة، وتجييع أهلها، ودفعهم إلى الهجرة القسرية في السنوات الخمس الماضية. وتقود الحملة التي تشنها الطائرات الروسية، بالتنسيق مع القوى الإيرانية لإعادة احتلال الشمال السوري، وحصار منطقة حلب وإخضاعها، والتي تستهدف عمداً المستشفيات والمدارس والخدمات العامة، من أجل إفراغ المدينة وريفها من سكانها، وتسوية عمرانها بالأرض، لطرد المقاتلين منها، وتسهيل السيطرة عليها في ما بعد، بقوات محدودة، إلى زيادة عدد القتلى والجرحى والمعطوبين من المدنيين، وإلى إطلاق موجة هجرة لامحدودة، نحو الحدود التركية المغلقة، والتي ستزداد إغلاقاً في المستقبل.

وعلى المستوى السياسي، لن يساهم حصار حلب وتدمرها في زيادة فرص التوصل إلى تسوية مفروضة بالقوة، كما يفكر بعضهم، لكنه سي فقد نظام الأسد صوابه، ويضاعف من تعنته ورغبتة في سحق معارضيه، ويزيد من تصلب المعارضة السياسية والمسلحة التي فقدت ثقتها تماماً بنيات روسيا وسياساتها. وبدل أن يعمل هذا الجسم العسكري الروسي على عزل المنظمات المتطرفة المقاتلة على الأرض، سوف يساهم في توسيع قاعدتها، وصب مزيد من الزيت على نار روح الانتقام والتأثر التي تلهب مشاعر أعضائها وتحركها. وعوض أن يعطي مثل هذا التحول بصيص أمل للسوريين، سوف يزيد من شقائهم ويسأهم وضياع ثقتهم بأنفسهم والعالم. وستتفاقم، بسبب ذلك، الأفعال وردود الأفعال اليائسة واللاعقلانية بين جميع أطرافهم، الموالية والمعارضة.

أما على المستوى الإقليمي، فلن يساهم الجسم العسكري الذي يبحث عنه الروس والإيرانيون في حلب، وسوريا عموماً، في وضع حد للحرب الإقليمية التي تدور، منذ ثلاث سنوات، على الساحة السورية، وعلى حساب دماء السوريين وعمرانهم ومستقبلهم، وإنما سوف يدفع إلى مزيد من انخراط الأطراف الإقليمية بالحرب، وهي التي لن تقبل بخسارة رهاناتها واستثماراتها الكبيرة في السنوات الخمس الماضية، ولا بالتسليم لإملاءات موسكو وطهران، في تحديد مصيرها ومصير العلاقات الدولية في المنطقة. فمثل هذا الموقف لا يعني خسارتها مصالحها في سوريا فحسب، وإنما زعزعة استقرارها السياسي، وتجير أزماتها الداخلية، وربما دفعها على الرغم منها إلى الانزلاق إلى الحرب، من دون حساب للمخاطر، أملاً بإنقاذ نفسها واستثماراتها والدفاع عن موقعها وصدقية خياراتها. ومما يزيد من هذا الاحتمال التداخل الذي اشتغلت عليه طهران نفسها في هذه الحرب بين الheimen، الإقليمية والمذهبية الدينية، بحيث سيبدو انتصار طهران انتصاراً للشيعة وخسارة تركيا والعرب خسارة للسنة. ما يضم بذور "حرب مقدسة"، ستجد نخب المنطقة صعوبات هائلة لإخراج الجمهور الشعبي منها، وإعادة توجيه الجهد الجماعي والشعبي نحو إعادة بناء الدولة والمجتمع، وإطلاق الحياة المدنية الطبيعية.

وهذا يعني أن جسم المعركة في حلب لصالح المحور الإيراني الروسي لن يساهم في إيجاد فرص أفضل لتفاهم إقليمي، أصبح شرطاً للخروج من المحرقة السورية، للسوريين ولجميع شعوب المنطقة، لكنه سوف يخلق شروط حربٍ طويلةً ومدمرة، قد تكلف شعوب إقليم ملايين القتلى والمنكوبين، كما هي حال الحروب الدينية التي عرفتها أوروبا في القرن السابع عشر، وكلفت بعض دولها إبادة أكثر من ثلث سكانها. وفي النهاية، لن يكون الرابع سوى الموت والخراب وحدهما. ولا ينبغي أن نقل من مخاطر هذا الاحتمال، مع وجود نظام سياسي بابوي، بالمعنى الحرفي الكلمة في طهران، من جهة أولى، يحتل فيه آية الله، أو رئيس الهيئة الدينية، قمة السلطة. ولا أمل للنخبة الدينية في المحافظة على سيطرتها على الدولة والمجتمع، إلا بالحفاظ على تعبئة دينية قوية، وتهبيج المشاعر المذهبية، وانهيار المرجعية الدينية الرسمية للعالم السنّي، وصعود التيارات والحركات السياسية الدينية غير المسيطر عليها، والخاضعة لقيادات دينية وسياسية شعبوية الطابع، من جهة ثانية.

بدل أن تفرح إيران من النصر الذي تقدمه لها روسيا على طبق من ذم، ينبغي عليها بالعكس أن ترى فيه هدية مسمومة

للمستقبل. ما يبدو نصراً لها اليوم، بفضل مليشياتها المذهبية ودعم روسيا اللامحدود الموجه أساساً لمعاقبة الغرب والانتقام منه، قد يتحول، ولا بد أن يتحول، إلى كارثة عليها على المدى المتوسط. ومهما نجحت سياسة النخبة "الشيوعية" الحاكمة، الضيقة الأفق، في تهجير ملايين المسلمين السنة، أو زعزعة استقرار بلدانهم وزرع الخراب فيها، فسوف يأتي وقت ينقلب فيه اتجاه الريح، وتجد طهران نفسها ضحية السياسات المذهبية الضيقة الأفق والانتهارية التي غذتها وراهنـتـ عليها في العقود الأربع الماضية. ولن تكون النتيجة انتصار مذهبٍ على آخر وإنما إخراج المنطقة، بما فيها إيران المعتمدة بنفسها اليوم، بسبـبـ ثروتها النفطية وتحالفاتها الأخلاقية، بأكملها من التاريخ والحضارة.

لا يختلف الأمر عن ذلك على المستوى الدولي. ستكون أوروبا أول البلد غير المشرقة الخاسرة. وهي وحدها التي ستجد نفسها أمام تحدياتٍ لن يكون لديها القدرة وحدها على مواجهتها، سواء في ما يتعلق بزحف موجات المهاجرين الجدد الفاقدـينـ أيـ أـمـلـ إـلـيـهـ، عبر البر والبحر والجو، أو في ما يتعلق بتنامي القوى الظلامية والمتطرفة المنتجة للإرهاب على أراضيها. وكلـاهـماـ يتـعـذـىـ منـ الآـخـرـ، فالـأـيـاسـ والـضـيـاعـ يـعـذـيـانـ التـطـرـفـ، تـامـاـ كـمـاـ يـعـذـيـ التـطـرـفـ خـوـفـ الدـوـلـ الـغـرـبـيـةـ منـ الـلـاجـئـيـنـ، وـرـفـضـ اـسـتـقـابـالـهـمـ، وبـالـتـالـيـ، تعـزيـزـ مشـاعـرـ الـكـراـهـيـةـ وـالـحـقـدـ لـدـىـ هـؤـلـاءـ عـلـىـ الدـوـلـ الـتـيـ تـغلـقـ حـدـودـهـاـ أـمـاـمـهـمـ، وبالـتـالـيـ منـ مـخـاطـرـ اـنـتـقاـمـهـمـ. فيـ المـقـابـلـ، بـمـقـدـارـ ماـ يـقـوـضـ الـحلـ الـرـوـسـيـ الـقـائـمـ عـلـىـ إـقـصـاءـ حـلـفاءـ وـاشـنـطـنـ صـدـقـيـةـ التـحـالـفـ الـغـرـبـيـ وـالـقـيـادـةـ الـأـمـيـرـكـيـةـ الـتـيـ سـلـمـ لـهـاـ الـأـوـرـوـبـيـوـنـ مـنـذـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـةـ الـثـانـيـةـ، سـوـفـ يـضـعـفـ أـورـوـبـاـ، وـيـزـيدـ منـ رـغـبـةـ الـرـوـسـ فـيـ التـحـرـشـ بـهـاـ وـزـعـزـعـةـ اـسـتـقـارـهـاـ، وـيـعـرـضـ الـغـرـبـ كـتـكـلـ جـيـوـسـتـرـاتـيـجـيـ لـلـزـالـ التـفـكـ وـالـانـقـاسـمـ.

وكـمـاـ أـنـ رـبـحـ إـيـرـانـ مـنـ إـقـصـاءـ الـعـرـبـ وـالـأـتـرـاكـ فـيـ سـوـرـيـاـ سـيـكـونـ رـبـحاـ مـنـ دـوـنـ قـيـمـةـ وـقـصـيرـ المـدـىـ، وـمـقـدـمـةـ لـحـرـوبـ جـدـيـدةـ قـادـمـةـ، يـشـكـلـ رـهـانـ روـسـيـاـ عـلـىـ تـفـجـيرـ التـحـالـفـ الـغـرـبـيـ، بـدـلـ التـعـاـونـ مـعـهـ لـإـصـلـاحـ نـظـامـ الـعـلـاقـاتـ الـدـولـيـةـ، خـيـارـاـ قـصـيرـ النـظـرـ، وـسـتـكـونـ لـهـ نـتـائـجـ سـلـبـيـةـ عـلـىـ روـسـيـاـ نـفـسـهـاـ الـتـيـ كـانـتـ، وـلـاـ تـزالـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ كـلـ الـصـرـاعـاتـ الـتـيـ مـيـزـتـ تـارـيـخـهاـ الـحـدـيـثـ، شـرـيكـاـ رـئـيـسـيـاـ لـأـورـوـبـاـ وـجـزـءـاـ مـنـهـاـ، حـتـىـ لـوـ كـانـتـ الأـقـلـ حـظـاـ مـنـ نـهـضـتـهاـ وـتـقـدـمـهاـ. فـبـخـضـطـهاـ الـمـتوـاـصـلـ عـلـىـ أـورـوـبـاـ، وـدـفـعـهـاـ لـهـاـ وـلـمـحـيـطـهـاـ الـمـتوـسـطـيـ إـلـىـ مـزـيدـ مـنـ الـفـوـضـيـ وـانـدـعـامـ الـأـمـنـ وـالـاستـقـارـ، لـاـ تـضـمـنـ مـوـسـكـوـ لـنـفـسـهـاـ مـصـالـحـ حـقـيقـيـةـ مـهـمـةـ، وـإـنـمـاـ تـدـفـعـ، بـالـعـكـسـ، إـلـىـ إـيـجادـ بـيـئـةـ إـقـلـيمـيـةـ غـيـرـ صـحـيـةـ طـارـدـةـ لـلـاـسـتـثـمـارـاتـ وـالـمـواـهـبـ وـالـمـوـاـرـدـ الـبـشـرـيـةـ وـالـمـادـيـةـ مـنـ عـمـومـ الـقـارـةـ. وـهـكـذاـ، تـلـعـبـ روـسـيـاـ، بـحـمـاقـتـهاـ السـيـاسـيـةـ وـالـإـسـتـرـاتـيـجـيـةـ، النـابـعـةـ مـنـ مشـاعـرـ الـحـقـدـ وـالـغـيـرـةـ وـالـانـتـقامـ، الدـورـ الـأـكـبـرـ فـيـ غـرـوبـ الـمـدـنـيـةـ الـأـوـرـوـبـيـةـ الـمـتـوـسـطـيـةـ الـتـيـ عـاـشـتـ روـسـيـاـ عـلـىـ أـفـضـالـهـاـ وـتـبـادـلـتـهـاـ مـعـهـاـ قـرـونـاـ طـوـيـلـةـ مـاضـيـةـ، لـصـالـحـ اـنـتـقـالـ مـرـكـزـ الـحـضـارـةـ وـالـمـدـنـيـةـ وـالـاسـتـثـمـارـ وـالـإـبـدـاعـ نـحـوـ آـسـيـاـ وـالـصـينـ الـتـيـ تـتـفـرـجـ عـلـىـ الـمـأسـاةـ مـنـ بـعـيدـ، وـتـرـبـتـ عـلـىـ كـتـفـ مـوـسـكـوـ مـنـ وـقـتـ إـلـىـ آـخـرـ.

وـمـعـ ذـلـكـ، لـيـسـ مـاـ يـحـصـلـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ مـنـ صـنـعـ الـأـحـقـادـ الـمـدـفـونـةـ وـالـظـاهـرـةـ فـيـ مـوـسـكـوـ أـوـ طـهـرـانـ أـوـ دـمـشـقـ، وـلـكـنـ أـغـلـبـهـ جـزـءـ منـ تـدـاعـيـاتـ السـيـاسـيـاتـ الـأـمـيـرـكـيـةـ وـالـغـرـبـيـةـ الطـوـيـلـةـ الـمـدـىـ، الـاسـتـعـمـارـيـةـ وـالـهـيـمنـيـةـ، الـعـقـالـانـيـةـ وـالـمـدـرـوـسـةـ، الـتـيـ أـوـصـلـتـ الـمـنـطـقـةـ، وـوـصـلـتـ هـيـ نـفـسـهـاـ، إـلـىـ طـرـيقـ مـسـدـودـ. لـكـنـ سـيـاسـةـ رـدـودـ الـفـعلـ، وـالـرـغـبـةـ فـيـ التـحـدـيـ وـالـتـشـفـيـ وـالـانـتـقامـ، قـدـ تـأـتـيـ بـنـتـائـجـ أـكـثـرـ سـوـءـاـ، حـتـىـ بـالـنـسـبـةـ لـأـصـحـابـهـاـ أـنـفـسـهـمـ، مـنـ الـأـفـعـالـ الـأـصـلـيـةـ السـيـئـةـ الـمـرـدـودـ عـلـيـهـاـ. وـإـذـاـ كـانـ اـسـتـبـادـ الـحـمـاـقـةـ بـعـضـ الـنـظـمـ الـمـأـزوـمـةـ وـالـشـخـصـيـاتـ الـعـدـيـمـةـ الـمـسـؤـلـيـةـ فـيـ مـنـطـقـتـنـاـ قـدـ أـوـدـىـ بـنـاـ إـلـىـ مـاـ نـعـرـفـهـ مـنـ مـهـالـكـ، فـمـاـ بـالـكـ إـذـاـ مـاـ تـحـولـ خـيـارـ شـمـشـوـنـ إـلـىـ خـيـارـ اـسـتـرـاتـيـجـيـ لـواـحـدـةـ مـنـ أـعـظـمـ الـقـوـىـ الـعـسـكـرـيـةـ فـيـ الـعـالـمـ، وـقـطـبـ رـئـيـسيـ مـنـ أـقـطـابـهـ.

